الأميرة الصغيرة

تأليف

فرانسيس هودجسون بيرنت

ترجمة

فايقة جرجس حنا



الأميرة الصغيرة

فرانسيس هودجسون بيرنت

A Little Princess

Frances Hodgson Burnett

الطبعة الأولى ٢٠١٢م
رقم إيداع ١٦٤١٣ / ٢٠١١
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

بيرنت، فرانسيس هودجسون.
الأميرة الصغيرة / فرانسيس هودجسون بيرنت.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٥١٧١ ١٢ ٢
١- القصص الإنجليزية
أ- العنوان
٨٢٣

رسم الغلاف: حنان الكرارجي، تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.

المحتويات

الفصل الأول

سارا

منذ زمن ليس ببعيد، وفي يوم شتاء غائم، جلست فتاة صغيرة في عربة بصحبة والدها، وأخذت تحدق عبر النوافذ في شوارع لندن الواسعة التي يغشِّيها الضباب. بدا لها وكأنهما كانا يتنزهان البارحة فحسب في شوارع الهند المُشمسة. لكن هذا لم يكن البارحة بالطبع؛ إذ قاما برحلة بحرية طويلة حتى وصلا إلى هنا في هذا المكان الجديد الغريب.

كانت سارا في السابعة من عمرها فحسب، لكنها بدت أكبر كثيرًا من عمرها الحقيقي، وكأنها عاشت دهرًا.

قالت سارا عندما بدأت العربة تُبطئ السير: «أبي، أبي؟»

نظر كابتن كرو إلى ابنته، وقال: «نعم يا سيدتي الصغيرة؟»

كان كابتن كرو من نوعية الرجال الذين يتسمون بالصبيانية وخلو البال، وكان يتقلد منصبًا في الجيش البريطاني في الهند. وكان يدلِّل ابنته باسم «سيدتي الصغيرة»، لأنها بدت ناضجة وحكيمة أكثر بكثير مما يوحي عمرها. وأحبَّت سارا الاسم الذي يناديها والدها به.

همست الفتاة: «ألم نصل بعد؟» عَبَر السائق بوابة حديدية عالية نحو ساحة مرصوفة بالحجارة.

أجابها والدها: «أجل يا سارا. ها نحن قد وصلنا أخيرًا» ومع أنه حاول أن يخفي شجنه، فقد أدركت سارا أنه يتمنى لو أنهما لم يصلا.

كان والدها يعِدُّها منذ زمن طويل لهذا المكان؛ وهو المدرسة الداخلية التي ستكون مأواها الجديد. ولأن المناخ في الهند كان يمثل خطرًا على صحة الأطفال — فإما حر لافح أو برد ورطوبة يصاحبان الرياح الموسمية، كانوا يرسلون الأطفال عادةً إلى إنجلترا. رأت

سارا أطفالًا آخرين وهم يغادرون، وأحيانًا ما كان يغمرها الحماس بشأن الرحيل في مثل هذه المغامرة، لكنها كانت تشعر بالحزن والفزع عندما تفكر في الابتعاد عن والدها.

دأب والدها على أن يقول: «سيكون هذا لفترة وجيزة فحسب»، وإن الجميع سوف يحسنون معاملتها هناك، وإنه سوف يبعث لها بفيض من الكتب التي ستنهل منها، وإنها ستنضج في لمح البصر وتصبح ذكية ذكاءً يؤهلها للعودة إلى الهند للاعتناء به.

راقت هذه الفكرة لسارا؛ فمنذ أن فارقت والدتها الحياة عند ولادتها، تُركا هما الاثنان وحدهما ليعتني كل منهما بالآخر. ومن أجل هذا السبب وحده، قررت سارا الرحيل.

مازحته سارا: «حسنًا، إذا حُزت الكثير من الكتب، أظن أنني سأكون على ما يرام.»

ضحك والدها، ثم قبّلها. ومع ذلك لم يكن موقنًا أنه سيكون على ما يرام بدون رفيقته الصغيرة سارا المفعمة بالحيوية والنشاط، لكنه رأى أنه لا بد أن يخفي ذلك عنها من أجل مصلحتها.

أنزلهما السائق أمام بناية ضخمة من القرميد بدا عليها القِدَم والمغالاة في الزخرفة، ولكنها في الوقت نفسه جامدة وباردة. وكان على الباب الأمامي لوحة نحاسية محفور عليها:

الآنسة مِنشن
مدرسة الصفوة الداخلية للفتيات

فتحا الباب الثقيل ثم دخلا.

وكان أول انطباع كوَّنته سارا عن الآنسة منشن لدى دخولها الحجرة أنها هي الأخرى عتيقة مغالية في زينتها وأيضًا جامدة وباردة إلى حدٍّ ما.

ابتسمت الآنسة منشن ابتسامة مصطنعة ومريبة.

قالت على سبيل المداهنة: «شرف عظيم لي أن أتولى رعاية مثل هذه الطفلة «الذكيَّة الجميلة» يا كابتن كرو.»

فكَّرت سارا في الكلمات التي قالتها الآنسة منشن. ظنَّت سارا أنها ذكيَّة مقارنة بسنها — ولطالما سمعت الناس يقولون هذا لوالدها — فكانت الآنسة منشن على صواب في هذا الأمر. بيد أن سارا كانت تظن أنها ليست جميلة على الإطلاق، وقد جانبها الصواب في هذا الظن. قالت سارا في نفسها: «أنا أقبح فتاة على وجه البسيطة، وأشدُّهن نحافة. إن الآنسة منشن مرائية كبيرة.»

وستعلم في وقت لاحق أن الآنسة منشن تقول نفس الكلمات لكل والد يحضر طفلته إلى مدرستها.

أنصتت سارا فيما كان والدها والآنسة منشن يتحدثان. وقد اتفقا على أن تحصل سارا على أي شيء تطلبه، ولسوف يتولى مدير أعمال كابتن كرو من شركة «بارو آند سكيبورث» دفع كافة الفواتير.

وتقرَّر أن تحصل سارا في المدرسة على غرفة نوم جميلة، وغرفة جلوس خاصة بها، ولعب، وحلوى، بالإضافة إلى عربة يجرها فرس صغير. ولسوف تحل محل مربيتها الهندية خادمة فرنسية تُدعى مارييت. ذكر كابتن كرو أن أي فتاة أخرى غير ابنته كانت ستفسد أخلاقها من مثل هذا التدليل الزائد، ولكن هذا لا ينطبق على ابنته سارا.

أيضًا ستصطحب سارا دمية مفضلة أطلقت عليها اسم «إميلي» لتكون صديقةً لها في غياب والدها. وكانت إيميلي إحدى الهدايا التي اشتراها كابتن كرو وسارا عندما تسوقا اليوم السابق. واشترى لها أيضًا فساتين، وقبعات مزينة بالريش والفرو، وقفازات صغيرة، وأوشحة، وعدة أزواج من الجوارب الحريرية. وكانت البائعات يتهامسن فيما بينهن أنه لا بد أن تكون سارا ابنة أحد الأمراء الهنديين.

لكن من بين كل هذه الأشياء كانت إيميلي الهدية المحببة إلى نفس سارا؛ إذ كادت الدمية تبدو بعينيها الزرقاوين البراقتين وشعرها اللامع وملابسها المتناسقة التي اختاراها معًا، إنسانًا، وكأنها الأخت الصغيرة لسارا. والأروع من هذا وذاك، بدت هذه الدمية وكأنها تنتبه وتنصت بحق متى تكلمت سارا؛ الأمر الذي لم يكن معهودًا مع الدمى. فبعد أن رأت سارا مئات الدمى في ذلك اليوم، انجذبت إلى إيميلي في اللحظة التي وقعت عليها عيناها في واجهة المتجر الزجاجية، وكأنها التقت بصديق قديم.

أخذ كابتن كرو سارا إلى الآنسة منشن في المساء الذي سبق اليوم المزمع أن يعود فيه إلى الهند كي تقضي ليلتها الأولى بمفردها. وفي وداع كل منهما الآخر، جلست سارا على حجِر أبيها وحملقت فيه، وبدت وكأنها تخشى أن تطرف بعينيها فتفقد رؤيته لحظة.

سألها: «أتحاولين أن تحفظي شكلي عن ظهر قلب؟»

أجابته: «لا، أنا بالفعل أحفظك عن ظهر قلب، فأنت تقبع بين ثنايا قلبي.» وعندئذ فقط أغمضت عينيها، ثم عانقته وكأنها لن تتركه أبدًا.

بعدما غادر والدها، اتجهت سارا إلى غرفتها، وأغلقت بابها. ومضت ساعات دون أن يُسمع دبيب نملة من داخل غرفتها. لم تستطع الآنسة أميليا السمينة غير المهندمة، أخت الآنسة منشن، تكوين انطباع عن سارا.

قالت الآنسة منشن في حدة: «حسنًا، هي على الأقل لا تركل الأرض ولا تصرخ مثلما يفعل بعضهن.»

وكانت الآنسة أميليا قد أفرغت أمتعة سارا في وقت مبكر، لكنها لم تساعدها في تكوين رأي عن سارا أيضًا. ومع أن الآنسة أميليا كانت أطيب قلبًا من أختها، أحيانًا ما كان يصعب تمييز ذلك، لأنها كانت تخشى عصيان الآنسة منشن.

قالت الآنسة منشن: «يا لهما من تافهين، لقد دُلِّلت هذه الفتاة وكأنها أميرة صغيرة!»

أومأت الآنسة أميليا بالإيجاب تصديقًا على كلامها.

أضافت الآنسة منشن: «ومع ذلك أنا موقنة بشدة من أن سارا ستشرِّفنا عندما تتصدر صفوف الفتيات إلى الكنيسة يوم الأحد.» وكانت الآنسة منشن تقلق بشدة على صورتها في أعين جميع من حولها. وكانت ترجو أن تكون سارا تلميذة مثالية في جوانب متعددة.

وفي الدور العلوي وقفت سارا وإيميلي في النافذة، لا تزالان تحدقان في زاوية الشارع الخالي من المارة حيث اختفت عن الأنظار العربة التي تقل كابتن كرو. ولقد لوح لهما من النافذة الخلفية وكأنه لا يتحمل أن يقول كلمة الوداع.

ولم تكن سارا تعرف هل بمقدورها هي أيضًا أن تتحمل هذا؟

في الصباح التالي، فيما كانت سارا ترتدي ملابسها استعدادًا ليومها الأول في المدرسة، تنهَّدت، وقالت لدميتها إيميلي: «أوه يا إيميلي، ليتك تستطيعين أن تأتي معي إلى الفصل.»

نظرت مارييت، التي كانت تساعدها في الاستعداد للذهاب إلى المدرسة، إليها وكأنها فقدت صوابها لأنها تتحدث إلى دميتها.

سألتها سارا بطلاقتها المعهودة في اللغة الفرنسية وهي تهز منكبيها في استنكار: «إلام تحدقين؟ لتعلمي أن الدمى تحيا في الخفاء، فبمقدورها أن تسير وتتحدث.» توقفت سارا ثم استأنفت حديثها قائلة: «ولكنها لا تفعل هذا أمام أحد.»

سألتها مارييت بالفرنسية أيضًا: «لماذا؟»

أجابتها سارا: «حسنًا، لو علم الناس ما تستطيع أن تفعله الدمى، لحملوها على أداء مهامهم!»

قالت مارييت: «أعرف أنني كنت سأفعل ذلك.» ثم فكرت في نفسها ما أحلى خفة دم سارا. دأبت على قول «من فضلك» و«أشكرك»، فبدت وكأنها أميرة صغيرة حقًّا.

عندما دخلت سارا إلى الفصل، التفت الجميع يحدقون فيها، وكانت لافينيا هيربرت، البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، تحملق فيها بشدة. أما لوتي ليج، التي لا تزال في الرابعة من عمرها فحسب، فقد احولَّت عيناها وهي تنظر إليها.

همست لافينيا إلى صديقتها جيسي: «يا إلهي! انظري إلى ما ترتديه الفتاة الجديدة. ما كل هذه الزينة!»

همست جيسي: «إنها ترتدي جوارب حريرية جميلة! انظري إلى قدميها الصغيرتين!»

تذمَّرت لافينيا، وقالت: «اعلمي أنه حتى الأقدام الكبيرة تبدو صغيرة لدى ارتداء الجوارب الحريرية! لا أظنها جميلة على الإطلاق، بل تبدو غاية في الغرابة.»

أومأت جيسي مصدقة على كلام لافينيا، إذ كانت تخشاها. لكن عندما أدارت لافينيا رأسها، اختلست جيسي نظرة أخرى لسارا. لم تكن جيسي واثقة من أن سارا جميلة، لكن كان ثمة شيء في سارا جعلها ترغب في أن تنظر إليها مرة أخرى؛ ربما قوامها الطويل الممشوق، أو شعرها المجعد الحالك السواد، أو عيناها الغريبتان ذواتا اللون الأخضر الضارب إلى الرمادي اللتان تشعان حكمة غريبة على طفلة في السابعة من عمرها.

طرقت الآنسة منشن على مكتبها كي يلتزم الجميع الصمت.

رفعت الآنسة منشن صوتها: «أيتها الفتيات، قفن من فضلكن.» وقفت الفتيات في أماكنهن فاستطردت: «أقدم لكن الآنسة كرو، الطالبة الجديدة، التي قطعت كل هذا الطريق من الهند إلينا.»

انحنت الفتيات احترامًا، فانحنت سارا بالمثل.

قالت الآنسة منشن: «دعونا نبدأ.» ثم وجهت كلامها إلى سارا: «أنا على يقين من أن والدكِ استأجر خادمة فرنسية من أجلك؛ لأنه أرداكِ أن تتعلمي الفرنسية.»

أجابت سارا: «آنسة منشن، مع كل احترامي لرأيك، أظن أنه استأجرها لأنه ظن أني قد أحبُّها!»

تحولت ابتسامة الآنسة منشن المصطنعة إلى نظرة عبوس.

صاحت الآنسة منشن: «يا لكِ من فتاة وقحة مدللة!» لكنها سرعان ما غيرت نبرة صوتها، فليس من الجيد أن تشتكي سارا إلى والدها الثري، لذا تداركت خطأها، وقالت: «أقصد أنك لا تفعلين كل شيء في هذه الحياة لأنك تحبِّينه.»

لم تعرف سارا ماذا تفعل، فهي تعرف أنها كانت تتحدث الفرنسية طيلة عمرها؛ فوالدتها فرنسية، وكان والدها يتحدث إليها بالفرنسية منذ نعومة أظافرها. وفي صباح

نفس اليوم عندما كانت تخبر ماريت عن الحياة الخفية التي تحياها دميتها إيميلي، كانت تتحدث إليها بالفرنسية وتفكر بها أيضًا.

لكنها شعرت بشيء من الخوف من الآنسة منشن، شأنها شأن سائر الفتيات.

قالت سارا في محاولة أن تفسر موقفها: «أنا ... أنا لم أتعلم الفرنسية في حياتي أبدًا، لكن ...»

صرخت الآنسة منشن مرة أخرى رغمًا عنها: «لكن لا شيء! اعتبارًا من اليوم ستبدئين في تلقي الدروس الفرنسية الخاصة بالسنة الأولى. بعد قليل سيحضر معلم الفرنسية، السيد دوفارج. والآن، اجلسي!»

بعد انتهاء الحصة الأولى، اصطحب السيد دوفارج سارا إلى حجرة بعيدة عن قاعة الدراسة الرئيسية كي تتلقى درسًا خصوصيًّا في الفرنسية. كان رجلًا لطيفًا ذا شارب فرنسي ملفوف. بدأ يعلمها بالتدريج وببساطة المقابل الفرنسي لكلمتي «كلب» و«قطة»، وبعدها أخذ يعلمها كيف تنطق كلمتي «ملعقة» و«شوكة».

فكَّرت سارا في نفسها: «لا بد أن أحاول مرة أخرى، لعلَّه يفهمني.»

وبالفعل فعلت هذا، ورفعت عينيها ونظرت إلى وجه السيد دوفارج العطوف، وبلكنة فرنسية رقيقة شرحت له الأمر برمته.

ابتسم السيد دوفارج ابتسامة عريضة للغاية حتى إن طرفي شاربه ارتفعا إلى أعلى.

وبعدها قصد الآنسة منشن، وقال لها: «سيدتي، الفتاة ليست في حاجة إلى أن تتعلم الفرنسية، إنها فرنسية!»

كانت بقية التلميذات ينصتن، فعلت ضحكات بعضهن لدى سماعهن هذا.

قالت الآنسة منشن وهي تنظر إلى سارا شزرًا: «كان يجدر بها أن تخبرني بهذا بدلًا من أن تجعلني أبدو كالحمقاء!» وكانت هذه هي بداية شعور الآنسة منشن بعدم الارتياح تجاه سارا. وبطريقة ما بدا أن الفتاة الصغيرة قد أظهرت الآنسة منشن على حقيقتها!

الفصل الثاني

تكوين صداقات جديدة

لم تضحك البدينة إرمنجارد سان جون عندما عرَّضت سارا — بطلاقتها في الفرنسية — الآنسة منشن للإحراج عن غير قصد. لم تر إرمنجارد أن هناك ما يدعو للضحك إذا ما قورنت حماقتها بحماقة تلك الفتاة الجديدة؛ أو إذا ما قورنت بأي شخص آخر مثلما اعتاد والدها أن يقول دائمًا. كان والدها باحثًا، ويتوقع من ابنته أن تقرأ كل الكتب التي يرسلها إليها وتفهمها. لكن هذا أمر مستحيل، لأن إرمنجارد لم يكن بمقدورها أن تسترجع ما قرأته لتَوِّها وكانت أبلد تلميذة في المدرسة. وكانت تدرس الفرنسية على مدار سنوات دون أن تحقق أي نجاح يُذكر، ونطقها الفرنسية مريع للغاية، فقد كانت «حمقاء!»

كانت إرمنجارد غارقة في التفكير حتى إنها لم تلحظ أنها تمضغ ضفائرها. فكما يقول والدها، تجدها دائمًا تمضغ شيئًا ما. ومن سوء حظها أن الآنسة منشن لاحظت هذا.

صاحت الآنسة منشن: «آنسة إرمنجارد، كفاكِ مضغًا لشعرك!»

فزعت الفتاة لدى سماعها ذلك وتوردت وجنتاها خجلًا. وقد لاحظت أن سارا كانت تشاهدها، مما ضاعف إحساسها بالخجل، فقالت في نفسها: «والآن ستظن الوافدة الجديدة أيضًا أنني حمقاء.»

لعل هذا لن يحدث. فبعد انتهاء الحصص الدراسية، اقتربت سارا منها.

قالت سارا في عذوبة: «أحب اسمك.» ثم أخذت تنطقه ببطء: «إرمنجارد … يبدو وكأنه اسم روائي.»

سألتها إرمنجارد: «أترين ذلك بالفعل؟» وحقًّا، عندما نطقت سارا اسمها بدا وكأنه اسم ملَكِي.

وفجأة قالت سارا: «أتحبين أن تأتي معي وتلتقين بإيميلي؟»

فسألتها إرمنجارد: «ومن تكون إيميلي؟»

مدت سارا يدها وقالت: «تعالي معي إلى غرفتي وانظري بنفسك.»

وفيما كانتا ترتقيان السلم متجهتين إلى غرفة سارا، سألت إرمنجارد: «أحقًّا تملكين غرفة جلوس خاصة بكِ وحدكِ؟»

– «أجل، لقد حصل لي أبي على واحدة، فعندما أنسج القصص وأقصُّها على إيميلي، لا أحب أن يسمعني أحد غيرها.»

قالت إرمنجارد في انبهار: «أتتحدثين الفرنسية وتؤلفين قصصًا من نسج خيالك أيضًا؟»

– «وما الغريب في ذلك، بمقدور أي شخص أن يؤلف قصصًا من نسج خياله، ويمكنكِ أنتِ أيضًا.»

لم تصدقها إرمنجارد، لكن لم يكن هناك وقت للاعتراض، فعندما بلغتا باب غرفتها المغلق، وضعت سارا إصبعها على فمها كي تحثها على الصمت.

همست سارا في غموض: «صه، دعينا نحاول ضبطها!»

لم تكن إرمنجارد تعرف ما الذي تتحدث عنه سارا، لكنه بدا أمرًا في غاية الإثارة. دفعت سارا الباب بقوة على حين غرة، فحملقت إرمنجارد في الغرفة، لكنها لم تر سوى دمية جميلة متكئة على مقعد بجانب المدفأة.

قالت سارا وهي تضحك: «يا لها من ماكرة. لقد عادت إلى مقعدها قبل أن نضبطها وهي تتحرك. دائمًا ما يفعلون ذلك!»

لم يبد أن إرمنجارد قد فهمت شيئًا، لذا أطلعتها سارا على الحياة التي تحياها الدمى في الخفاء.

في تلك اللحظة لم تبد إرمنجارد متحيرة فحسب وإنما خائفة أيضًا؛ إذ أخذت تتساءل: تُرى ما الذي يحيا في الخفاء أيضًا؟ لعلَّ قطع الأثاث؟ وأخذت تحملق في مقعدها في شك وريبة.

قالت سارا: «لا تقلقي. هذا مجرد خيال. ألم يسبق لك أن تخيلت حدوث بعض الأشياء؟»

أجابت إرمنجارد: «كلا.»

قالت سارا: «لا تقلقي. هذا أمر سهل للغاية، وسأعلّمك إياه.»

وعلى مدار الساعة التالية جلست إرمنجارد تحتضن ركبتيها في سرور فيما تعلِّمها سارا أساسيات التخيل، من سرد قصص واختلاق أشياء غريبة. وبالطبع لم تستطع أن تعلمها الفرنسية في ساعة واحدة، لكنها أخبرتها المزيد عن حياة الدمى الخفية، وعن رحلتها من الهند. وأخيرًا أخبرتها عن والدها.

وعندئذ توقفت سارا عن الحديث، وتغضَّن وجهها، وبدت وكأنما قد تبكي.

سألتها إرمنجارد: «هل أنتِ بخير؟»

فردت سارا بسؤال آخر: «هل تحبين والدكِ؟»

أجابت إرمنجارد: «قلَّما أراه، لكن لا بد أن أحبه، أليس كذلك؟»

اندفعت سارا قائلة: «أنا أحب والدي أكثر من أي شيء في العالم. وأفتقده كثيرًا.» ثم رفعت رأسها، وتنهدت بعمق، ثم أضافت: «لكنني قطعت له وعدًا بأن أكون جنديًّا قويًّا، ولسوف أكون كذلك بكل تأكيد. سوف أكون كذلك!»

وعندئذ تبادرت فكرة إلى ذهن إرمنجارد التي ألهمها حديث سارا، فقالت: «لافيينا وجيسي صديقتان حميمتان، أتظنين أنه بمقدورنا أن نصيرا نحن أيضًا صديقتين حميمتين؟ حتى ولو تظاهرنا بذلك؟»

قالت سارا: «يا لها من فكرة رائعة! ولسنا في حاجة إلى التظاهر!»

في اليوم التالي قالت إرمنجارد لسارا في الردهة: «لافينيا تكرهك.» ونظرت خلفها خشية أن تسمعها لافينيا، ثم أضافت: «قبل مجيئك إلى هنا، كانت هي أذكى فتيات المدرسة وأكثرهن أناقة. كانت لافينيا «مهمة».»

قالت سارا: «لكن ليس هناك ما يدعو لافينيا لأن تكرهني. إنها تغار مني، لكن يمكنها أن تظل مهمة؛ أي شخص يمكنه ذلك.» اندهشت إرمنجارد لدى سماعها الكلمات الأخيرة وأخذت تفكر في نفسها: «حتى أنا؟»

الحقيقة أن لافينيا كانت فتاة حقودة اعتادت أن تفرض نفوذها وسيطرتها على بقية الأطفال من حولها. وقبل أن تصل سارا، كانت لافينيا تجلس إلى جانب الآنسة منشن أثناء تناول الوجبات، وتتقدم الصفوف أثناء الزيارات الخارجية التي تنظمها المدرسة. لكنها لم تعد كذلك الآن.

وإحقاقًا للحق، كانت سارا تظن أن الأشياء تحدث للناس بمحض المصادفة، ففكرت في نفسها: «ليس ذنبي أنني أحببت المدرسة دائمًا، وأنني لدي أبٌ يحبني ويهبني أشياء جميلة.»

قالت سارا في صرامة: «مهما كان الأمر، أنا لا أكره لافينيا.»

ردت إرمنجارد: «أنتِ تتمتعين بقلب لا يستطيع أن يكره أي شخص.» غرقت سارا في التفكير لحظة.

ثم أفصحت عما يدور بخلدها: «أحاول أن أكون طيبة. لكن كيف لي أن أعرف إذا كنت طيبة بالفعل؟ ففوق كل شيء، يسهل على الإنسان أن يكون طيبًا عندما ينعم برغد العيش، لكن إذا كنت أعاني من ضنك العيش واجتزت الكثير من البلايا، فربما ما كنت لأصبح طيبة، لعلي كنت سأصبح مؤذية!»

قطع حديث سارا وإرمنجارد صرخة قوية وحادة، فرفعتا أعينهما لترَيا لافينيا تقف فوق لوتي، وعلى وجنة لوتي علامة حمراء حديثة في حجم يد لافينيا اليمنى. دمدمت إرمنجارد قائلة: «هذا بمناسبة التحدث عن الشخصيات المؤذية ...»

انتحبت لوتي: «لقد صفعتني!»

هرعت سارا إليها فحالت بينها وبين لافينيا، ثم صرخت في وجه لافينيا: «ماذا تفعلين؟ لوتي في الرابعة من عمرها، وأنت في الثالثة عشرة من عمرك تقريبًا، أي أنكِ تكبرينها بتسع سنوات!»

أجابت لافينيا: «حقًّا! تجيدين الجمع!» وكانت تتمنى أن تصفع سارا أيضًا، لكنها نظرت إليها بازدراء، واندفعت خارج الحجرة.

وحتى مع خروج لافينيا، لم تتوقف لوتي عن البكاء. كانت لوتي هي الطفلة الصغرى، ليس في المدرسة وحدها، وإنما في عائلتها أيضًا، وقد دُلِّلت كثيرًا طوال حياتها. وعلى خلاف سارا فسدت لوتي من التدليل المفرط؛ إذ ماتت والدتها ومنحها من حولها الانطباع بأنها بمقدورها أن تستغل هذه الحقيقة في أن تحظى باهتمام خاص. وهي لا تنطق أبدًا بعبارات مثل «من فضلك» أو «أشكرك.» ومتى احتاجت إلى شيء ما، تجدها تركل الأرض بقدميها وتصرخ. وكانت لوتي الصغيرة تنعم برئتين قويتين؛ فمتى صرخت، كاد يُسمع صوتها في كل أرجاء لندن.

لا شك أن صرخاتها بلغت آذان الآنسة منشن والآنسة أميليا، فجاءتا مهرولتين.

سألت الآنسة منشن: «ما الذي يحدث هنا؟ لوتي، لماذا تبكين؟»

ردت إرمنجارد: «لقد صفعتها لافينيا.»

قالت الآنسة منشن: «قطعًا هذا غير صحيح. لافينيا آنسة مهذبة.»

صرخت لوتي وهي لا تزال تركل الأرض بقدميها: «أووووووو! ليس لي ...»

قالت الآنسة أميليا: «يا لها من طفلة مسكينة. ماذا تحتاج؟»

فأجابت الآنسة منشن: «تحتاج أن تُبرَح ضربًا. هذا كل ما في الأمر!»

عندئذٍ تعالت صرخات لوتي أكثر.

فقالت سارا: «آنسة منشن، اسمحي لي بأن أحاول أن أتحدث إليها لعلَّها تهدأ.»

أومأت الآنسة منشن على نحو مقتضب.

جلست سارا على الأرض إلى جانب لوتي. وبدلًا من أن تتحدث سارا، نظرت إليها دون أن تنبس ببنت شفة. وقد تحير الجميع من تصرفات سارا الغريبة.

بل إن لوتي نفسها تحيرت أيضًا؛ فعادةً عندما تبكي يُحدث الجميع جلبة من حولها، ويتوسلون إليها كي تتوقف عن البكاء، ويعدونها بتنفيذ أي شيء تطلبه شريطة أن تتوقف عن البكاء فحسب. بيد أن تصرف سارا كان غريبًا حتى إن لوتي نسيت صراخها.

قالت سارا عندما صمتت لوتي أخيرًا: «مرحبًا.» فردت لوتي لاهثة: «أهلًا.»

سألتها سارا: «لم تبكين؟»

همّت لوتي بالرد عليها، فقالت: «ليس لي ...» ثم انقطعت عن الكلام.

شجَّعتها سارا: «تكلَّمي.»

أخيرًا اندفعت لوتي قائلة: «ليس لي أم!» ومع أن شفتها السفلى كانت لا تزال ترتجف، حدثت المعجزة وهدأت لوتي.

سألت سارا الآنسة منشن: «أحقًّا هذا؟» ربما لا تكون لوتي سعيدة الحظ.

ردت الآنسة منشن في وضوح: «أجل، ماتت والدة لوتي عندما كانت صغيرة.»

وعندها احمرَّ وجه لوتي، وبدا أنها تستعد لأن تركل الأرض وتصرخ من جديد، لكن سارا تفوهت قبل أن تبدأ نوبة الهياج، وقالت: «وأنا أيضًا.»

طرفت لوتي بعينيها من المفاجأة الثانية. لم تشأ لوتي أن تتوقف عن البكاء والعويل، ولكنها متحيرة؛ لا فائدة منه الآن. سألتها لوتي: «أين هي؟»

ردت سارا: «في السماء. هكذا تكون معظم الوقت ...»

اتسعت عينا لوتي، وسألتها: «وأين تكون بقية الوقت؟»

أخذت سارا تطلعها على أفكارها عن الملائكة، وتشرح لها أنهم يحيون في الخفاء، شأنهم شأن الدمى، ويعودون إلى الأرض من حين إلى آخر للاعتناء بأحبائهم.

نهضت لوتي وأخذت تتلفت حولها؛ ففكرة أن والدتها ربما تكون في مكان ما في الجوار تراقبها جعلتها ترغب في أن تتصرف كفتاة يمكنها التواصل مع الملائكة.

طلبت لوتي: «أخبريني بالمزيد!» فقد كانت قصص سارا حلوة على مسامعها مثل الحلوى.

بدأت سارا تحكي وهي متلألئة العينين متوردة الخدين. واجتمع حولها الكثير من الفتيات الأخريات، فسحرتهن أيضًا قصص سارا؛ فطريقة سارا في إلقاء القصص جعلتها تبدو وكأنها قصص حقيقية.

كان صوت سارا وهي تصف السماء عذبًا وجذابًا: «ثمة حقول من الأزهار يركض فيها الصغار ويجمعون باقات كثيرة منها، ويضحكون، ويصنعون عقودًا طويلة من أزهار الزنبق. وثمة جنيَّات في كل مكان لا يفعلن شيئًا سوى أن يسبحن في كل الأرجاء.»

قالت لوتي: «أريد أن أسبح مع الجنيات، لأنه ليس لي أمٌّ هنا على الأرض.»

كانت سارا تعرف الرد المناسب، فقالت: «سأكون أنا أمك. سنتخيل أنكِ طفلتي الصغيرة بالتبنِّي، وستكون إيميلي أختك.»

عندما ابتسمت لوتي ظهر في خدها غمَّازة كبيرة زادتها جمالًا.

سألت لوتي المبتسمة: «حقًّا؟ أستكون أختي؟»

أجابت سارا وهي تثب على قدميها: «أجل، لنذهب ونخبرها بهذا.»

وافقت لوتي وسارت في ابتهاج شديد وراء سارا إلى خارج الغرفة، فمن الآن فصاعدًا لديها الكثير لتستمتع به.

كثيرًا ما كانت سارا تلمح فتاة تكبرها ببضع سنوات تجلس في الظلام بالقرب من المدخل الخلفي للمدرسة أو في أحد ممراتها. كانت الفتاة تحمل طرودًا ثقيلة في معاناة شديدة، وعرفت سارا أنها ليست طالبة بالمدرسة. ولأنها فتاة فضولية، صمَّمت على أن تعرف المزيد.

وبدا أن هذه الطفلة يساورها نفس الفضول لمعرفة المزيد عن سارا؛ فدائمًا كانت تختلس النظر إليها بعينيها الواسعتين اللتين يحددهما وجه حلو ملطخ بالفحم. وكانت الفتاة في الرابعة عشرة من عمرها، لكنها بدت في الثانية عشرة نتيجة للحياة القاسية التي تتكبدها.

حدث ذات يوم أن اصطدمت سارا بالفتاة أثناء سيرها في الممر، فابتسمت لها.

وعادة ما يرد الناس ابتسامة سارا بابتسامة مثلها، لكن هذه الفتاة ارتاعت وكأنها قد أُخبرت بأنه ليس من شأنها أن تنظر إلى كل الفتيات الراقيات، فما بالك أن تبتسم لهن.

قالت سارا في رقة: «لا بأس. ما اسمك؟» لكن الفتاة كانت قد انطلقت بالفعل عائدة نحو الظلام.

وفي ذلك المساء، وفيما كانت سارا جالسة في الردهة تسرد قصة أخرى من قصصها الشهيرة (حول عرائس وعرسان البحر، وبالطبع حول الأميرات أيضًا)، إذ بنفس الفتاة تدخل إلى الردهة، وكانت تبدو هزيلة ومنهكة القوى، وتحمل صندوق فحم ثقيل للغاية.

نزلت الفتاة على ركبتيها كي تكنس الرماد. كنست الفتاة مرة بعد مرة بعد مرة، وفي تلك اللحظة أسرتها قصة سارا حتى إنها توقفت عن الكنس، وبدلًا من إزالة الرماد، جلست مسترخية حالمة في أحد المقاعد حتى إنها فقدت قبضتها على فرشاة المدفأة التي أوشكت أن تسقط من يدها.

وقبل أن تدرك الفتاة هذا، إذ بها تجد نفسها في أغوار البحار بصحبة سارا وسائر الفتيات الأخريات ذوات الشأن، وبصحبة عرائس وعرسان البحر. ولم تحيا قط الفتاة في خلال فترة حياتها القصيرة الشاقة لحظات وسط أزهار البحر والأعشاب التي تتمايل بخفة وكأنها تتراقص على ألحان الموسيقى التي كانت تسمعها في خيالها الآن أيضًا بفضل سارا.

سقطت الفرشاة من يد الفتاة فأصدرت صوت ارتطام مرتفع، فالتفتت إليها كل الفتيات.

كشرت لافينيا عن أنيابها، وظهر جانب شخصيتها الذي يفيض بالحقد والتعالي، وصاحت فيها: «كيف تجرئين على أن تستمعي إلى هذه القصص! أقصد إنها قصص حمقاء ساذجة ... وأنتِ لستِ سوى خادمة!»

تمتمت الفتاة المذعورة بكلمات الاعتذار، والتقطت فرشاتها، وهرولت إلى خارج الغرفة.

ثارت ثائرة سارا على لافينيا، وصاحت فيها: «كيف تجرئين على فعل هذا؟ القصص ملك الجميع وليست حِكرًا على أحد!» استشاطت سارا غضبًا حتى إنها كادت أن تصفع لافينيا، لكنها كانت تعرف أن عليها أن تتصرف كأميرة حقيقية وألا تنحدر بمستواها إلى مستوى لافينيا.

اكتشفت سارا لاحقًا أن اسم الفتاة بيكي، وأنها يتيمة، وتعمل خادمة بالمطبخ الواقع في الطابق السفلي، ومنوط بها مهام النظافة الشاقة التي لا يؤديها أحد سواها. وعادة كانت الفتيات تسمع صوت الآنسة منشن يدوِّي من الدور السفلي وهي تقول: